المرجعية النقدية عند "عبد الملك مرتاض"

" *Critical reference to "Abdul-Malik Murtadh*

حكيمة بوقرومة*

تاريخ الارسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر

الملخص:

لقد استطاع الناقد الجزائري "عبد الملك مرتاض" أن يبلور منهجا نقديا في تحليل الخطاب يغترف من الأصول الغربية، و يتكئ على التراث العربي، و من هنا كانت فكرة الحديث عن المرجعية النقدية لهذا الناقد، و منهجه في التنظير لتحليل الخطاب، و كيفية استقباله للنظريات العربية، خاصة السيميائية منها، كنموذج للنقاد العرب الآخرين، و كيف أوصلها للمتلقي.

الكلمات المفاتيح: عبد الملك مرتاض، المرجعية النقدية، النقد الجزائري

Abstract:

The Algerian critic, Abd al-Malik Murtad, was able to crystallize a critical approach to discourse analysis that draws from Western origins and relies on the Arab heritage. Hence the idea of talking about the critical reference of this critic, his method of theorizing to analyze discourse, and how he receives theories. Arabic, especially the semiotic ones, as a model for other Arab critics, and how to convey it to the recipient.

*Keywords: Abd al-Malik Mortada, critical reference, Algerian criticism**Keywords**: Borayo, Algerian criticism, structuralism*

*** *** **

* جامعة المسيلة

مقدمة:

تشهد الساحة النقدية في الجزائر في السنوات الأخيرة تطورا ملحوظا، نتيجة الجهود المبذولة من قبل ثلة من الباحثين و الدارسين الذين اهتموا بأدب هذه الأمة و إبداعاتها، و قد أخذوا على عاتقهم مسؤولية التنظير للنقد بصفة عامة، و النقد الجزائري بصفة خاصة، كما حاولوا من جهة أخرى تثمين ذلك بالجوانب التطبيقية على الإبداعات الأدبية و الفكرية التي أبدعتها على وجه الخصوص أقلام جزائرية مسهمة بذلك في إثراء صرح الإبداع الإنساني عامة، و الجزائري خاصة.

و من بين هؤلاء النقاد البارزين على قمة الهرم، نذكر الناقد الجزائري المعروف و المشهور الدكتور "عبد الملك مرتاض"، الذي أثرى الساحة الأدبية و النقدية بأعماله الكثيرة و القيّمة، إنه من أكثر النقاد الجزائريين « مؤالفة بين التراث و الحداثة، و مقاربة بين الرؤى المتباعدة و معايشة بين الثقافات المختلفات».[1]

لقد استطاع الناقد الجزائري "عبد الملك مرتاض" أن يبلور منهجا نقديا في تحليل الخطاب يغترف من الأصول الغربية، و يتكئ على التراث العربي، و من هنا كانت فكرة الحديث عن المرجعية النقدية لهذا الناقد، و منهجه في التنظير لتحليل الخطاب، و كيفية استقباله للنظريات العربية، خاصة السيميائية منها، كنموذج للنقاد العرب الآخرين، و كيف أوصلها للمتلقي.

1- مصادر الفكر النقدي عند "عبد الملك مرتاض":

إن "عبد الملك مرتاض" لا يتنكر للذات المتمثلة في التراث، و لا ينغلق على ثقافة الآخر الوافدة، من خلال الحوار المنهجي الذي يقيمه بين القديم و الجديد، و من خلال التأصيل النظري و الممارسة التطبيقية التي يقابل فيها بين بعض إشكالات التراث و بعض مسائل الحداثة المنهجية، كما فهمها و صاغها، و قد اقترح مفاهيما جديدة تكمل النقص الموجود و تملأ الفراغ، من أجل تأسيس بدائل معرفية و صياغة نظرية، أو نظريات نقدية و ميتا نقدية، تكون قادرة على زعزعة الفكر الأدبي السائد، و ملامسة جلّ مستويات التحليل النصي و تأويلاته، سواء في علاقته بذاته كنظام لغوي رامز، أو في علاقته بمختلف الظواهر و الأنظمة الأخرى المحيطة به، و المحايثة و الموازية، كالمجتمع و التاريخ و الإيديولوجية و الثقافة السائدة،.. عبر شبكة منهجية متعددة و متجانسة [2]، و من خلال ذلك يمكننا الإشارة إلى أهم المصادر التي اعتمدها "عبد الملك مرتاض" في مجاله النقدي، و المتمثلة فيما يلي:

أ- **المصادر الحداثية:**

لا شك أن "عبد الملك مرتاض" من أكثر النقاد اهتماما بالمنهج، و الواضح أن المنهج السيميائي قد احتل عنده مكانة معتبرة، و قد بدأ مساره النقدي السيميائي من خلال تحليله السردي لحكاية "حمّال بغداد"، ضمن حكايات "ألف ليلة و ليلة"، رغبة منه في الدخول إلى مرحلة أكثر تأسيسا لإرساء معالم الدرس السيميائي ضمن تجربته في السيميائية و التفكيكية، مشيرا إلى منهجه السيميائي قائلا: « فلتكن هذه محاولة ممنهجة لدراسة التراث العربي، و لتكن قبل كل شيء مدرجة لإثارة السؤال و مسلكه لاستضرام الجدال، و لتكن أيضا دعوة إلى التجديد، و لكن بعيدا عن فخ التقليد الذي ابتلينا به في هذه النظريات التي نقرأها مترجمة».[3]

و هو المنهج الذي يعتبره شاملا قادرا على الإحاطة بعوالم النصوص واكتشاف مستغلقاتها، و

في هذا المجال يقول: « أولى لنا أن ننشد منهجا شموليا تكون به القدرة على استكناه دقائق النص، واستكشاف كوامنه، و تعريف مكامنه، دون أن نقع في فخ البنيويين الرافضين للإنسان و التاريخ... و الاجتماعيين الذين يعللون كل شيء تعليلا طبقيا و لا في فخ النفسانيين و هم الذين يودون جهدهم تفسير سلوكات المبدع من خلال تفسير الإبداع».[4]

و قد بيّن منهجه المرتكز على مبدأ التوفيق بين التراث و النظريات اللسانية، بما في ذلك السيميائية، فتوصل إلى جملة من النتائج، ساعده على ذلك إيمانه بانفتاح النص و تعدد القراءات للنص الواحد.

ويعدّ كتابه "دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي لمحمد العيد" جزءا من مشروعه النقدي الضخم المرتكز على اللسانيات و السيميائيات، و نقلة نوعية في التأسيس الفعلي للاتجاه السيميائي و التفكيكي.

و في ضوء التصور الشامل لرؤيته المنهجية، لجأ "عبد الملك مرتاض" إلى البحث في أصول منهجه المتبع (السيميائي التفكيكي)، مقاربا ذلك بالبنيوية، و مجموع الأفكار التي احتوتها، و من جهة أخرى أسس منهجه النقدي هذا على خصوصية سيميائية مهمة، و هي التأويلية كمفهوم سيميائي يعطي تفسيرا أدبيا لقصيدة معينة، و ما تحمله من تركيبات لفظية في النص، معتمدا في ذلك على دراسات "فردينان دي سوسير" في تركيب اللغة، مما كان له الأثر الكبير في التأويل النصي، و في علم الدلالة، ثم من بعد ذلك البنيوية، و ما بعد البنيوية.

و في هذا المجال ظهر كتاب آخر لـ "عبد الملك مرتاض"، يتضمن الكثير من هذه الممارسة النقدية، و التي تعد فضاء للشعر و تحليله سيميائيا، و هو كتاب "شعرية القصيدة- قصيدة القراءة- تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية لعبد العزيز المقالح"، و تمثل هذه الدراسة « إحدى الممارسات العملية المتميزة، و التي أنجزها وفق التحليل السيميائي، مستفيدا من بعض مقولات المدارس النقدية الغربية المختلفة، و محاولا تطويرها بما يخدم رؤاه النقدية»[5]، و قد أثار هذا الكتاب جدلا واسعا في الأوساط النقدية العربية، و أحدث معارك ساخنة عند النقاد العرب المعاصرين.

و حسب ما أكده الدكتور "مولاي علي بوخاتم" أن "عبد الملك مرتاض"، بنى منهجه على خمسة مستويات، كان قد كشف عنها في بعض ممارساته النقدية، و تم رصدها كما يلي: [6]

1- المستوى الأول: و يجسد قراءة تشاكلية انتقالية.

2- المستوى الثاني: و يجسد مقاربة تشاكلية تحت زاوية الاحتياز.

3- المستوى الثالث: ينصب على المقاربة الانزياحية.

4- المستوى الرابع: يمثل قراءة جديدة في الحيّز.

5- المستوى الخامس: يقرأ النص من زوايا الأيقونة، الإشارة، القرينة، الرمز.

يعود الفضل في نقل السيميائية الغربية إلى الجزائر في مطلع الثمانينات إلى الناقد الجزائري "عبد الملك مرتاض"، و قد دعا إلى إرساء قواعد هذه النظرية، ثم اعتبارها متطورة تحاول أن تكون كلية النظرة، شمولية النزعة، تتلاءم مع كل ما له صفة لغة أو خطاب أو نص أو دلالة أو تركيب أو تأويلية أو مدلول، و هذه المصطلحات كلها كانت موجودة في معجم اللسانيات قبل ظهور هذا العلم. [7]

و قد أعلن عبر الكثير من مؤلفاته عن تأثره بالدراسات الحداثية الغربية، قائلا: « فلتكن هذه محاولة منهجية لدراسة التراث العربي السردي، و لتكن قبل كل شيء، مدرجة لإثارة السؤال، و مسلكة لاستخدام الجدل، و لتكن أيضا دعوة إلى

التجديد، و لكن بعيدا عن فخ التقليد الذي ابتلينا به بهذه النظريات التي نقرأها في لغاتها الأصلية طورا، و نقرأها مترجمة طورا آخر، فإذا عدواها تسري كالسموم التي تتسرب في أجسامنا» [8]، و في مجال آخر يقول: « أما ما نود نحن، فهو أن نفيد من النظريات الغربية، القائم منها على العلم كما نفيد من بعض التراثيات و نهضم هذه و تلك، ثم نحاول بعد أن نتناول النص برؤية مستقلة مستقبلية».[9]

و قد استفاد "عبد الملك مرتاض" من النقد العالمي، و أخذ عن رواده، فنجد عنده الكثير من المصطلحات مستمدة من المعجم السيميائي لـ "غريماس"، و في كثير من الأحيان يمزج بين السيميائية و ملامح البنيوية و التفكيكية.

انطلق "مرتاض" في تحليله للنصوص من المضمون إلى الشكل، و من الشكل إلى المضمون، مستمدا رؤيته هذه من أفكار مشرفه المستشرق الفرنسي "أندري ميكائيل"(***Andry Michael***)، ضمن رؤاه البنيوية، كما اعتمد الرؤى البنيوية لـ "ميشال فوكو" (***Mchael Faucault***)، مشيرا إلى ضرورة التخلص من الرؤية المسبقة أو المنهج المحدد، قائلا: « نلج عالم النص الأدبي بدون رؤية مسبقة، و ربما بدون منهج محدد من قبل».[10]

كما اعتمد بعض مظاهر اللسانيات، من خلال مصادرها المعجمية الأولى، لـ "غريماس" و "كورتيس"، و معجم "جان ديبوا"، و في تحليله للنصوص السردية تأثر بأفكار المدرسة الشكلانية و أقطابها البارزين، مثل: "رومان جاكبسون" و "طوماشيفسكي"، و غيرهم، كما يبدو ذلك واضحا في كتابه "تحليل الخطاب السردي- معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق"، و قد تأثر كذلك بآراء "جاك دريدا" و مذهبه، في كتابه: "أين ليلاي- دراسة سيميائية تفكيكية".

ب- المصادر التراثية:

يمثل التراث أحد المصادر الأساسية التي اتكأ عليها "عبد الملك مرتاض" في بلورة و تشكيل منهجه السيميائي، كما سبق أن أشرنا، هذه الرؤية التراثية تظهر في تلك الدراسات التي أنجزها حول بعض الكتب التراثية، مثل "مقامات السيوطي"، و "ألف ليلة و ليلة- تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمّال بغداد"، و غير ذلك، و هو في كل هذا ينزع إلى التركيب المنهجي المفتوح و المنتشر، عوض القراءة المغلقة المتقوقعة ذات المنهج الواحد، مزاوجا بين التراث البلاغي القديم و معطيات السيميوطيقا الحديثة، معمقا لحوار نقدي و معرفي بين ما أنجزه التراث البلاغي و اللغوي و النقدي العربي، و بين تلك التصورات و الآليات الحديثة التي يقدمها النسق المعرفي الغربي، مما جعله يأخذ من التراث العربي و لا يفتتن بصراعات الحداثة الغربية ، على اعتبار أنها الخلاص و المنتهى، و لذلك نراه يؤكد بكل جرأة و ثقة بأن هذه الأدوات الجديدة التي تطالعنا بها العلوم الإنسانية كل يوم، هي مجرد وسيلة مطورة لرؤيتنا للنص، و مكملة للنقائص التي كانت تعيق مساعينا في التحليل للاقتراب نحو الكمال.[11]

إن المواطن التي حاول فيها "مرتاض" الجمع بين الحداثة و التراث كثيرة، وردت في دراساته النقدية، و قد استطاع بمهارة كبيرة أن يوظف التراث وفق ما يخدم منهجه النقدي، و أن يأخذ من النقاد المحدثين الغربيين، و المزج بين كل ذلك للخروج من أحد أهم المعوقات التي تعيق النقد العربي الحديث، متمثلا في قضية المصطلح.

2- مفهوم النقد و نقد النقد عند "عبد الملك مرتاض":

يرى "عبد الملك مرتاض" أن النقد في الثقافة الغربية قبل القرن التاسع عشر كان متوجها

إلى الأدباء، و لم يكن يعنى بنقد الآثار الأدبية و الإبداعية، و كان أيضا يلتبس بمفهوم نظرية الأدب، و لذلك فالثقافة الغربية لم تعرف النقد بمفهومه المعاصر إلا في القرن التاسع عشر، و قد كانت العملية النقدية آنذاك تقوم على الأحكام الجزئية، و تقتصر على الحكم بالجودة أو الرداءة على العمل الإبداعي، و الأحكام النقدية المطلقة، و التي يصطلح عليها في نقدنا القديم بالأحكام غير المعلّلة، و يضرب مثالا على ذلك الناقد" ديدور" الذي أصدر حكما على بعض أعمال "سوفوكليس"، قائلا: « لا يوجد لفظ واحد يضاف، و لا لفظ واحد يحذف» [12]، كما يشير إلى أن هذه الأحكام وسمت بالأحكام القضائية، أو ما يصطلح عليه بالوظيفة القضائية، لأن مهمة الناقد إصدار الأحكام، و أغلب هذه الأحكام تبلورت في حكمين اثنين، هما: الجودة و الرداءة. [13]

و من ثم ينتهي "مرتاض" إلى أن عجز النقاد و إصدارهم مثل هذه الأحكام يرجع إلى عدم القراءة، لأن القراءة هي أساس النقد، و لأنها القدرة على التسلط و القدرة على النسج، كما أن القراءة الناقدة هي التي تبرز خصوصيات الإبداع، و تظهر تمفصلات النص المبدع، كما لاحظ أن الأحكام النقدية الصادرة قبل القرن التاسع عشر لم تكن تختلف عن تلك الأحكام التي كان يصدرها الناقد العربي من حيث العموم، و الإطلاق، و الجزئية، و النقد الأدبي لم يظهر إلا مع ظهور الشكلانية الروسية، و التي نجمت عنها الشكلانية الفرنسية. [14]

أما عن ماهية النقد، فيستهل الدكتور "عبد الملك مرتاض" حديثه بطرح إشكالية، و هي: ما النقد؟، و يرى أنه من الصعوبة أن يسأل المرء عن إشكالية معقدة بهذا السؤال البسيط، و من الصعوبة أن يُجاب عنه كما يجاب عن أي سؤال، لأن « النقد بمفهومه المعرفي المعقد و ماهيته الجمالية المتناهية اللطف يندرج في صلب الاهتمامات الفكرية المستمرة» [15]، فمنذ أن وجدت العملية الإبداعية، و خصوصا الإبداع الشعري وجدت حوله الآراء، أو ما عبر عنه الناقد باللغة الواصفة، أو "لغة اللغة"، و يشير إلى أن من زعم أنه يقدم إجابة نهائية و جازمة لهذه الإشكالية: "ما النقد؟" ، يكون قد أوصل العقل البشري إلى صورة الكمال النهائي، و توقف عن التفكير المستمر و المتجدد، و من ثم يحدد إطار الإجابة، و التي تتفرع إلى قسمين، هما: النقد النظري و النقد التطبيقي: [16]

فالنقد النظري هو نقد تأسيسي تأصيلي، و هو من الضرورة بمكان لأطوار المعرفة وازدهارها، كما أن مجاله هو البحث في الأصول النظرية، و الجذور المعرفية و الخلفيات الفلسفية، و كل الاتجاهات و التيارات التي أثّرت في الجوانب النظرية.

أما النقد التطبيقي، فهو نتاج و ثمرة النقد النظري، و لو لا النقد النظري التأسيسي لما كان هناك نقد تطبيقي، و من ثمة فإن النقد النظري و النقد التطبيقي أمران متلازمان، أو هما وجهان لعملة واحدة. و يرى "مرتاض" أن الغاية الأسمى من النقد النظري و التطبيقي تبرز في أن كليهما يسعى إلى كشف حقيقة النص، أو تأويله، أو تفسيره، أو استكشاف علاقة الدال بالمدلول، أو معرفة الإشارات، أو تقويضه أو تفكيكه، و من ثم اختلفت الغاية النقدية تبعا لاختلاف الاتجاهات و التيارات الفكرية، و إن الغاية المثلى للنقد تتجلى في خدمة النص الأدبي، و الكشف عن جماليته و سبر أغواره، و الغوص في خفاياه و أبعاده، و قد أشار من جهة أخرى إلى العلاقة بين النقد النظري و النقد التطبيقي، متمثلة في كون النقد التطبيقي هو ترجمة

حقيقية لتلك النظريات و الاتجاهات الجمالية و التيارات الفكرية، فيقوم بعملية تصنيفها و فرزها، و ذلك خدمة للنص الأدبي.[17]

بعد ذلك، يتحدث عن القراءة المجهرية المتسمة بالدقة و القدرة على التنقيب داخل النص الأدبي، و العمل على تعريته، و لا شك أن القراءة التي يدعو إليها ليست مجرد قراءة، بل إنه « يدعو إلى القراءة الاحترافية التي تمكننا من إنتاج نص على أنقاضها هي»[18]، كما يشير إلى قراءة ثالثة تتجاوز القراءتين النظرية و التطبيقية، و التي اصطلح عليها "نقد النقد"، معتبرا أن أول من اصطنع مثل هذا المعنى، و أشار إلى مثل هذا المصطلح و لأول مرة العلاّمة "عبد القاهر الجرجاني" الذي اصطنع في العربية "معنى المعنى".[19]

بعد ذلك يطرح إشكاليات كثيرة تتعلق بالنقد من حيث ضرورته للأدب، و من حيث الماهية و الوظيفة، و من حيث المناهج و الأشكال، و غير ذلك من التساؤلات التي تؤرق الناقد، و الباحث، و الدارس على السواء، ثم حاول التمييز بين النقد الذاتي، و نقد النقد، فاعتبر أن "نقد النقد" يختلف أيما اختلاف عن النقد الذاتي، ذلك أن نقد النقد يقع وسطا بين تاريخ النقد و التوقف لدى المعالم الكبرى لهذا النقد عبر مدرسة بعينها، أو عبر عدة مدارس، في حين أن النقد الذاتي يمكن أن ينصّب على مراجعة الأعمال النقدية الشخصية، أو الأعمال النقدية التي كتبت ضمن مدرسة من المدارس، ثم يجتهد في انتقادها من موقف تلك المدرسة النقدية نفسها.[20]

يؤكد "عبد الملك مرتاض" أن القراءة لا يمكن أن تحلّ محلّ النقد، و لا النقد يمكنه أن يحل محل القراءة، و في هذا السياق يقول: « فالقراءة شكل من أشكال المعرفة الأدبية الجديدة بحيث لا هي أرفع من النقد درجة و لاهي أحطّ منه منزلة، لكن كلا منهما يصنف في منزلته»[21]، و يرى أيضا أن القراءة تعين الناقد أثناء القراءة النقدية، ثم ينتقد تلك الاتجاهات التي حاولت علمنة الأدب، و لكنها فشلت في ذلك فشلا ذريعا، نذكر منها: الشكلانية الروسية، البنيوية، التفكيكية و السيميائية.[22]

يخلص في النهاية إلى أن النقد عملية تنظيرية للإبداع، أما النقد التطبيقي فهو عملية تجسيدية للنقد التنظيري، و نقد النقد هو المظهر الثالث للمعرفة النقدية الجديدة، و المتمثل في التعقيب أو التعليق على نقد كان قد كتب من قبل حول ظاهرة أدبية ما، و من جهة أخرى ينتهي إلى أن النقد هو درجة وسطى بين الفلسفة و العلم و الفن.

3- المنهج المركب و القراءة المتعددة:

شهد المسار النقدي عند "عبد الملك مرتاض" تطورا ملحوظا على المستوى المنهجي، إذ بدأ الباحث ممارسته النقدية انطباعيا تاريخيا، فبنيويا أسلوبيا، ثم سيميائيا تفكيكيا، و هذا يعني أنه مر بمرحلتين منهجيتين، هما: النقد التقليدي و النقد الحداثي، و قد عد الكثير من الدارسين كتابه: "النص الأدبي من أين؟ و إلى أين؟ علامة فارقة بين نقد تقليدي و آخر حداثي نصي في ممارسات "مرتاض" النقدية، و لكن الصواب غير ذلك، إذ إن التحول من النقد الأول إلى النقد الثاني تمّ فعليا عبر النص، إذ يقول "مرتاض": « انزلقت إلى المنهج الحديث من خلال تعاملي مع النص الشعبي، فكان أول عمل تجريبي قمت به في التعامل مع النص هو كتابي "الأمثال الشعبية"...ثم "الألغاز الشعبية الجزائرية"...».[23]

و لا شك في أن هذا التحول كان مسبوقا بإرهاصات تعود إلى ما قبل الأعوام الثمانين، و هو ما يدل عليه قول "مرتاض": « لما تسجلت في السوربون تحت إشراف الأستاذ "أندري ميكائيل"

كان لا مناص من تغيير جلدي، دون تغيير جوهري و هويتي، فكانت سنة ست و سبعين... الفترة الحاسمة في حياتي العلمية: بين التراث و جماله، و عمقه، و أصالته... و بين الحداثة بما فيها من ضبابية، و جمال الشكل، و صرامة المنهج، ثم بما فيها خصوصا من القلق المعرفي ».[24]

لقد سعى" مرتاض" منذ أمد بعيد إلى تجريب المناهج الغربية الحداثية، في قراءة نصوص عربية مختلفة زمانا و جنسا، لأنها تؤدي في نظره، حتما « إلى إنتاج معرفة، بل ربما إلى إنتاج نظرية جديدة للمعرفة، على أنقاض ما فُكّك من بناء المعرفة القديمة» [25]، و لا يتعامل الناقد مع هذه المناهج تعاملا آليا، فيطبقها بحذافيرها في قراءة النص الأدبي العربي الذي يمتاز بخصوصيات معينة، بل ينتقي منها ما يراه أصلح و أنسب لهذا النص، و يجتهد في تطويعها و تكييفها مع البيئة الثقافية العربية. و تجربة "مرتاض" النقدية تتراوح بين الأخذ من التراث العربي بما يزخر به من مقومات نقدية و معالم منهاجية الأصالة التراثية، و بين الحداثة الغربية المعاصرة على نحو متكامل، « و لعلنا لا نجانف جادة الصواب إذا قلنا إن الأصالة "لقاح نقدي" يجعل ناقدنا مُمَنِّعا من تأثيرات المناهج الحداثية، و يُكسبه قدرة على التعامل مع هذه المناهج بوعي سليم، و ذوق صميم».[26]

يزاوج "مرتاض" بين التنظير و الممارسة التطبيقية في أغلب الأحيان، ليختبر ما نظّر له في معالجة النصوص، و قد دعا إلى التركيب المنهجي نظريا، و طبقه عمليا في كثير من دراساته، يقول: « إن التعددية المنهجية أصبحت تشيع الآن في بعض المدارس النقدية الغربية، و نرى أن لا حرج في النهوض بتجارب جديدة تمضي في هذه السبيل بعد التخمة التي مُني بها النقد من جراء ابتلاعه المذهب تلو المذهب، خصوصا في هذا القرن أي القرن العشرين».[27]

إن القراءة المتعددة للنص الأدبي ليست بالمسألة السهلة، بل « إنها محفوفة بالمخاطر و المزالق، إذ تتطلب من منجزها المشاركة في كثير من العلوم»[28]، إذ ينبغي الاطلاع على عدد كبير من النظريات و المناهج، مما يسمح بالقراءة المتعددة للنص، و يضمن القراءة الشمولية الدقيقة للنص.

إن المسار النقدي لـ "عبد الملك مرتاض" حافل بلا ثبات المنهج، « فقلقه المعرفي الذي يساير مشروعه النقدي جعله لا يطمئن لمنهج واحد في مقاربة أو تحليل نص أدبي، سرديا أو شعريا، لافتقار هذا الأخير لتقنيات يسد بها متطلبات النص الأدبي»[29]، حيث يرى أنه « لا يوجد منهج كامل، مثالي، لا يأتيه الضعف و لا النقص من بين يديه و لا من خلفه، و إذن فمن التعصب التمسك بتقنيات منهج واحد على أساس أنه، هو وحده، و لا منهج آخر معه» [30]، ثم يقول: « فإننا لا نستنيم، من حيث المبدأ، إلى أي منهج إذن، و نجتهد أثناء الممارسة التطبيقية، أن نضيف ما استطعنا إضافته من أصالة الرؤية لمنح العمل الأدبي الذي ننجزه شيئا من الشرعية الإبداعية، و شيئا من الدّفء الذاتي معا».[31]

و يعدّ "عبد الملك مرتاض" من أكثر النقاد توزعا بين المناهج المتباينة الطرح، انطلاقا من المناهج السياقية، مرورا بالمناهج النسقية، منتهيا إلى التركيب المنهجي المفتوح و المنتشر، إيمانا منه بأن التعددية المنهجية أصبحت الآن شائعة في بعض المدارس النقدية الغربية، و عليه، فـ "عبد الملك مرتاض" ينحو النهج التركيبي بوعي كامل أثناء قراءته، و هو في الحقيقة يختلف عن المنهج التكاملي، كما يؤكد ذلك "مرتاض" بقوله: « أوْلى لنا

أن ننشد منهجا شموليا و لا أقول منهجا تكامليا، إذ لم نر أثفه من هذه الرؤية المغالطة التي تزعم أن الناقد يمكن أن يتناول النص الأدبي بمذاهب نقدية مختلفة في آن واحد، فمثل هذا المنهج مستحيل التطبيق عمليا...» [32]، و قد برّر ذلك بكون التيارات النقدية المعاصرة قد جنحت إلى "التركيب المنهجي"، « و ذلك لدى إرادة قراءة نص أدبي ما، مع الاجتهاد في تجنيس التركيبات المنهجية حتى لا يقع السقوط في التلفيقية».[33]

إن ميله إلى التركيب المنهجي في مقارباته، دعوة صريحة إلى تبني قراءة احترافية، و هي التي تنهض على جملة الإجراءات التجريبية و الاستطلاعية و الاستنتاجية جميعا[43]، و هي بقدر ما تنهض على التناقض، تنهض كذلك على التناسق و الترابط، و من خلال ذاك استطاع "مرتاض" المزاوجة بين « التراث البلاغي القديم و معطيات السيميوطيقا الحديثة، و ناهضا في خضم ذلك و معمقا لحوار نقدي و معرفي بين ما أنجزه التراث البلاغي و اللغوي و النقدي العربي و بين تلك التصورات و الآليات الحديثة التي يقدمها النسق المعرفي الغربي».[35]

و لكي يمنح هذا الطرح قيمته المنهجية و العلمية، و لمحاولة ربط المعاصر بالقديم، و الحداثي بالتراثي، يرى أنه « من المكابرة الزعم بأن المعاصرين اليوم، وحدهم، هم الذين اهتدوا السبيل إلى إشكالية القراءة السيميائية بكل إنجازاتها اللسانياتية و بتعدد حقول تأويلاتها المستكشفة، و التي ليس لآفاقها حدود»[36]، فقد مارس العرب كتاباتهم حول النص الأدبي منذ فجر التاريخ الأدبي، هذه الكتابات تشكل بدايات و إرهاصات لقراءة سيميائية، مثل الشروح التي قدمت حول الدواوين الشعرية المشهورة، و كذا النصوص النثرية، كالمقامات، و من جهة أخرى وردت محاولات أخرى تضمنت التشاكل الذي هو أحد فروع السيميائية تحت مصطلحات مختلفة، كالطباق، و المقابلة، و اللّف، و النشر، و الجمع، ... و كل هذا دليل على أن البلاغيين العرب كانوا قد تحدثوا عن الإجراء السيميائي، غير أن قصور أدواتهم الألسنية جعل إمكانياتهم محدودة، حتى جاء "غريماس" و تمكن من استثمار تلك الأدوات التي أوصلته إلى التنظير لهذا المنهج.

و من خلال المفاهيم و النظريات الغربية واكتساب مقومات النقد التراثي عند "عبد الملك مرتاض"، استطاع هذا الأخير أن يخلق القراءة المركبة، التي يغوص بها في أعماق النص، ليكشف عن جملة المركبات اللسانية و الإيديولوجية و الجمالية و النفسية، بوعي كبير للمزاوجة بين مختلف المستويات، و من هذا المنطلق كان نفور "مرتاض" من أحادية المنظور القرائي المنغلق، داعيا إلى تعددية القراءة و إثراء الأدوات المنهجية.

إن جنوحه إلى تعددية القراءة، و النزوع نحو التركيب المنهجي، و يقينه بأن النص الواحد « يجب أن يظل مفتوحا إلى ما لا نهاية، و أن كل قارئ يمكن أن يقرأ بمنظاره، أو منظوره الخاص...» [37]، هذا ما يجعل القارئ يقترب من النص قصد التوسع و التعمق فيه، مستندا إلى جملة من الأدوات، مفجرا عطائية النص، فتغدو القراءة متعددة و متجددة، و كل قراءة تمثل وجهة نظر معينة، « فهذه قراءة نحوية، و تلك قراءة لغوية، و ثالثة أسلوبية، و أخرى تنزع منزعا آخر يكون بلاغيا، و هلّم جرا... و على أن داخل كل قراءة يمكن أن تظهر قراءة أخرى تنتمي إلى نوعها، و لكنها تختلف عنها».[38]

إن النص يظل واحدا، بينما قراءته تتعدد و معالجته تتباين، و لهذا فكر "عبد الملك مرتاض" في استحداث التركيب المنهجي الذي يحفل به

خطابه النقدي، كي يسدّ به متطلبات النص، و قد دعا إلى تعددية القراءة و تجددها، « إخصابا للقراءة السيميائية و بالتالي إشباع النص بتفجير عطائيته من طرف القارئ» [39]، و بهذا الموقف جمع بين التراث النقدي اللغوي و البلاغي و بين ما توصل إليه النقد الغربي من آليات و تصورات، ليثبت أن الأدب العربي أحد الآداب العالمية الكبرى، و يبقى "مرتاض" « ناقدا غربي المنهج، عربي الطريقة... حداثي المادة، تراثي الروح...» [40]، فهو الحداثي المحافظ الذي أسهم بشكل كبير بمجهوداته المنهجية في بناء مدرسة نقدية عربية منطلقها التراث و منهاها الحداثة.

4- إشكالية اللامنهج عند "عبد الملك مرتاض":

اعتاد بعض الدارسين على إطلاق صفة "اللامنهج" على ما يسمى بـ "المنهج التكاملي"، « الداعي إلى تلفيق المناهج و ترقيعها بعضها ببعض، محاولة للتوفيق بينها، و رغبة في الخروج منها بصورة منهجية شاملة و كاملة! » [41]

و إذا كان "عبد الملك مرتاض" قد أثبت فكرة "اللامنهج" أول مرة في كتابه "النص الأدبي من أين؟ و إلى أين؟"، حيث قال: « إن اللامنهج في تشريح النص الأدبي هو المنهج»[42]، فإنه قد أعلن في مرات عديدة رفضه القاطع لما يسمى بـ "المنهج التكاملي" الذي عده خرافة مستحيلة التحقق.

و لقد أساء الكثير من الباحثين فهم منظور هذا الناقد إساءة نابعة من سوء فهمهم لمفهوم "اللامنهج"، و تصنيفهم إياه ضمن خانة "المنهج التكاملي"، و الواقع أنه يستحيل فهم مراد "مرتاض" من " اللامنهج" دون الرجوع إلى السياق التنظيري الذي أورده فيه، حيث ورد مقرونا بما أسماه "العطائية"، أي ما يمكن أن يعطيه إيّانا نص أدبي ما من خلال البحث في مكامنه و زواياه..، فقد كان النص الأدبي يتجدد و ينبعث من خلال كل قراءة يقوم بها القارئ، و هكذا نجد عطاء النص متجددا أزليا لا ينفذ أبدا.[43]

و يرى "مرتاض" أن عطائية النص تتناسب طرديا مع مرونة المنهج و مدى انفتاحه و تطويعه لاستيعاب خصوبة النص، و يتجلى ذلك من خلال حرصه على ذوق الناقد و رؤيته الشخصية، بما لا يتنافى مع الإطار العام للمنهج، و ضرورة إخضاع المنهج لخصوبة النص.[44]

و من هنا يتحدد "اللامنهج" بمعارضته للمنهج الجامد و التطبيق الآلي للإجراءات المنهجية الثابتة التي لا بد أن تكون غريبة نسبيا عن خصوصية النص المدروس، و منه فإن "اللامنهج" يعني « الدخول المحايد إلى النص مجردا من الآليات المنهجية الصارمة (التي لا بد أنها مستمدة من خصوصية نصية مغايرة)، بمواجهة النص مواجهة مرنة، تتظاهر بأدوات منهجية قابلة للتطويع بما يعمق عطايته، و يتركها أرضية بكرا، قابلة لممارسة قرائية مفتوحة...».[45]

فـ"اللامنهج" إذن عند "عبد الملك مرتاض" « قراءة حرّة مفتوحة (تحرر المنهج و يستعمرها النص)، لكنها ليست نهائية...»[46]، و إن التزام "مرتاض" باللامنهج في دراساته النقدية للنصوص، قد آل به إلى استثمار الآليات المنهجية الغربية (الدخيلة) بطريقة عربية، تخضع لذوق عربي بحت، و هي في كل الأحوال لا يمكنها أن تسيء إلى خصوصية النص الأدبي.

من خلال تتبع المسار النقدي عند "عبد الملك مرتاض"، تمكنّا من الوصول إلى جملة من النتائج الهامة، و المتمثلة فيما يلي:

- أن تجربة "عبد الملك مرتاض" تجربة غنية و ثرية، سواء من حيث المنهج الذي اتبعه أو من

حيث المصادر التي أخذ منها، و التي ارتكزت على محورين مهمين، هما: الحداثي و التراثي، فلم يتعامل مع المناهج الغربية بآلية، بل كان يطعمها بذوق تراثي، و يصل الغربي بالعربي، و قد كان له الفضل الكبير في استيعاب المناهج الحداثية برؤية علمية واضحة، تستند على التراث و تتكئ على الجديد.

- يعود إليه الفضل في تأسيس نظرية نقدية عربية مستقلة، بعيدا عن محاكاة النقد الغربي، و إنما العمل على الاستفادة مما ورد في النقد الغربي من آراء و نظريات، و تتميز قراءته بالطرح المنطقي، و القدرة على الإقناع، و الغربلة و التمحيص للآراء سواء أكانت عربية أم غربية، و من جهة أخرى اتسمت هذه القراءة بالجرأة و محاولة سبر الأغوار و تحديد الأبعاد.

- لقد ساهم بشكل كبير في بناء مشروع يكون نقطة انطلاق حاسمة تُصَحَحُ من خلالها المفاهيم، و تضع اللبنات الأساسية للاستفادة من الموروث النقدي العربي و الانفتاح على المذاهب الغربية الحداثية تطعيما و تلقيحا من أجل التكامل و التلاقح، لا المحاكاة و الذوبان.

- إن تهجين أي منهج أمر ضروري لتنشيط أدواته، و تفعيل إجراءاته، و هو قادر على العطاء و التخصيب، و ليس عيبا، فالأسلوبية مثلا: مهجنة عن النحو و البلاغة و علم اللغة، و إن هذه الهجانة المنهجية أو القراءة المتعددة مسألة صعبة، محفوفة بالمخاطر و المزالق، لأنها تتطلب من مُنجزها المشاركة في كثير من العلوم.

- دعوته إلى اللامنهج في النقد مادام النص المبدع يمتلكه كل من وجده، يعني أنه موجه لمختلف القراء، فقد آمن بأن لا وجود لمنهج كامل، و كل منهج يظل عرضة للنقص، و لأجل التقليل من هذا النقص الذي يعتري المنهج الواحد، لجأ إلى البحث عن "منهج مركب"، و ظلّ يشدد على ضرورة اختلاف "المنهج المركب" عن "المنهج التكاملي".

- حاول "مرتاض" الإحاطة بالنص من مجمل أطرافه، و تقصى ما يمكن تقصيه من دلالات و أبعاد، و قد توصل إلى نتيجة مهمة، و هي أن خصوصية كل نص هي التي تحدد المنهج الملائم لدراسته.

- إن الهدف الأساسي من مجهودات "مرتاض" المنهجية، المتعددة الأشكال هو وضع لبنة لتشييد صرح مدرسة نقدية عربية تقوم على قراءة النص الأدبي، كما أكدت تجربته النقدية أنه بالإمكان دراسة نص قديم بأدوات منهجية حداثية، و قد جرب الناقد هذا الأمر مع نصوص عربية قديمة كثيرة و معروفة.

الهوامش:

1- يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 2002، ص 7.

2- ينظر: قادة عقاق، هاجس التأصيل النقدي لدى عبد الملك مرتاض بين وعي التراث و طموح الحداثة، مجلة نزوى، سلطنة عمان، ع 38، أفريل 2004،

http://www.nizwa.com/volume38/p272_276.html

3- عبد الملك مرتاض، ألف ليلة و ليلة، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص 8.

4- المرجع نفسه، ص 11.

5- مولاي علي بوخاتم، الدرس السيميائي المغاربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 2005، ص 78.

6- ينظر: طارق ثابت، عبد الملك مرتاض و جهوده في التنظير لتحليل الخطاب "المنهج السيميائي نموذجا"، أعمال الملتقى الدولي الثالث في تحليل الخطاب، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، فيفري، 443، 2007،

Anifest.univ-ourgla.dz/index.php/seminaires/archive/faculté-des-lettres-etdes-langes/37.html

7- ينظر: مولاي علي بوخاتم، الدرس السيميائي المغاربي، ص 15.

8- عبد الملك مرتاض، ألف ليلة و ليلة، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد، ص 11.

9- المرجع نفسه، ص 12.

10- مولاي علي بوخاتم، الدرس السيميائي المغاربي، ص 18.

11- ينظر: قادة عقاق، هاجس التأصيل النقدي لدى عبد الملك مرتاض بين وعي التراث و طموح الحداثة، مجلة نزوى.

12- عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد، متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة و رصد لنظرياتها، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2002، ص 25.

13- ينظر: عمر بن طرية، عبد الملك مرتاض من خلال كتابه "في نظرية النقد"،

http://revues.univ_ourgla.dz/index.php/numero-08-2009/955-2013-05-13-14-30-07

14- ينظر المرجع نفسه.

15- عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد، متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة و رصد لنظرياتها، ص49.

16- ينظر: عمر بن طرية، عبد الملك مرتاض من خلال كتابه "في نظرية النقد".

17- ينظر المرجع نفسه.

18- عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد، متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة و رصد لنظرياتها، ص 53.

19- ينظر: المرجع نفسه، ص 54.

20- ينظر: المرجع نفسه، ص 56.

21- المرجع نفسه، ص 66.

22- ينظر: المرجع نفسه، ص 68.

23- جهاد فاضل، أسئلة النقد، حوارات مع النقاد، الدار العربية للكتاب، تونس، د.ت، ص 217.

24- حوار أجراه محمد هيشور مع مرتاض، "المشكلة المنهجية في الأدب الإسلامي"، مجلة المشكاة، وجدة، المغرب، ع 18، س5، ربيع 1994، ص 118.

25- عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الحلبي، دار الكتاب العربي، الجزائر، طبعة 2001، ص 20.

26- فريد أمعضشو، المنهج في التجربة النقدية لعبد الملك مرتاض، عود الند، المجلة الثقافية الشهرية، الناشر: عدلي الهواري،

http://www.oudnad.net/net/spip.php?article64#sthash.gGmwkucG.dpuf

27- عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، طبعة 2005، ص 6.

28- محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، دراسة نظرية و تطبيقية، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1982، ص 5.

29- عبد السلام مرسلي، منظور النقد عند عبد الملك مرتاض، المنهج المركب و القراءة المتعددة للنص الأدبي من منظور النقد عند عبد الملك مرتاض، عود الند، المجلة الثقافية الشهرية، الناشر: عدلي الهواري، العدد 68، السنة السادسة،

http://www.oudnad.net/spip.php?article310#sthash.66clvsld.dpuf

30- عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الحلبي، ص18.

31- المرجع نفسه، ص 19.

32- عبد الملك مرتاض، ألف ليلة و ليلة، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد، ص 10.

33- عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص 34.

34- ينظر: عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد، متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة و رصد لنظرياتها، ص13.

35- قادة عقاق، هاجس التأصيل النقدي لدى عبد الملك مرتاض بين وعي التراث و طموح الحداثة، مجلة نزوى.

36- عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص 7.

37- المرجع نفسه، ص 15.

38- المرجع نفسه، ص 16.

39- عبد السلام مرسلي، منظور النقد عند عبد الملك مرتاض، المنهج المركب و القراءة المتعددة للنص الأدبي من منظور النقد عند عبد الملك مرتاض.

40- يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، ص 8.

41- المرجع نفسه، ص 86.

42- عبد الملك مرتاض، النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 86.

43- ينظر: المرجع نفسه، ص: 54-55.

44- ينظر: يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، ص ص: 87-88.

45- المرجع نفسه، ص 88.

46- المرجع نفسه، ص 89.